بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجر

الحمد لله وكفىٰ، وسلام علىٰ المصطفى، وعلىٰ عباده الذين اصطفىٰ.

أما بعد، فهذه سورة الحجر المكية، والتي يدور محورها حول المصير المخيف للظالمين في الآخرة، وبعض ما نالهم في الدنيا.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾

﴿الٓرۚ﴾ هي من الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور، وقد سبق الحديث عنها.

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: هذه معجزات الكتاب.

﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ وهو: قرآن كثير التوضيح عن الله، وصفاته، ورسله، وشرعه، وحلاله، وحرامه، وعلل الإنسان وعلاجها إلىٰ غير ذلك.

ثم يخبر ربنا في مطلع السورة عن أن الكفار يوم القيامة سيندمون، ويتمنون ـ لمَا يرون ـ أن لو كانوا مسلمين، يقول الله تعالىٰ:

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾

أي: سيتمنىٰ الكفار يوم القيامة لمَا يرونه من العذاب الواقع بهم، والنعيم يتمتع به المسلمون ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ فينجون، ويسلمون من هذا العذاب.

ثم يقول ربنا لمحمد ﷺ عن كفار مكة:

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾

يعني: دعك من هؤلاء الكفار يا محمد، واتركهم ﴿يَأْكُلُوا﴾ ويشتغلوا بلذاتهم ﴿وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بدنياهم ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ بطول العمر، ودوام الصحة، عن الإيمان وطاعة الله، ولا تحزن عليهم.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبة أمرهم، وسوء مآلهم.

ولمَّا أمره ربه سبحانه بتركهم، وعدم الانشغال بهم، ذكر له علل ذلك وأسبابه، فقال في **السبب الأول**:

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ۝٥﴾

في هاتين الآيتين يبين ربنا أنه لم يؤخر العذاب عنهم إهمالًا، ولكن ليبلغوا أجلهم المقدر لتعذيبهم هذا.

والمعنى: أنه ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ﴾ لكفرهم ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ﴾ أي: موعد مكتوب ﴿مَّعْلُومٌ﴾ عند الله تعالى، في اللوح المحفوظ، وفي حكمنا وسنتنا أنه ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ ظالمة ﴿أَجَلَهَا﴾ المحدد ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ عنه.

وعلى هذا فدعهم يا محمد، وسنتولى نحن أمرهم.

ثم قال سبحانه في **السبب الثاني**:

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧﴾

أي: لأنهم..

أولًا: ﴿قَالُوا﴾ استهزاءً بك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: القرآن، ولم يقولوا: يا محمد احترامًا وتقديرًا.

ثانيًا: وصفوك بالجنون؛ حيث قالوا: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ لأنك تدعي النبوة، وهذا قول المجانين.

ثالثًا: أنك تهزأ بنا وتكذب علينا؛ إنك ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ تشهد لك، فأت بها ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

وقد رد الله عليهم بقوله:

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾

يعني: نحن ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ لمجرد اقتراحهم بنزولها، وما ننزلها ﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ وهو العذاب، والعذاب له أجل محدد. ولو نزلت الملائكة كما يقترحون ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا﴾ أي: حين نزولها ﴿مُنظَرِينَ﴾ مؤخرين العذاب، بل لهلكوا في ساعتها.

كما أن إنزال القرآن عليك قد تم بطلبك، أو أنه من صنعك كما يزعمون، بل ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ الذين ﴿نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ﴾ أي: القرآن، بوحينا وأمرنا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ كذلك من التحريف، والتبديل، والزيادة أو النقص.

وعلىٰ هذا فدعهم يا محمد، وسنتولىٰ نحن أمرهم.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ، في **السبب الثالث**، لأمره للنبي بتركهم ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ رسلًا ﴿فِى شِيَعِ﴾ فرق ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من الأمم السابقة. وهذه الفرق من الأمم السابقة كانوا ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ من هؤلاء الرسل يبلغهم عن الله، ويدعوهم إلىٰ الإيمان به ﴿إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ﴾ وبدعوته ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كما يفعل الكفار من قومك معك.

و﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكفر والاستهزاء الذي كان في قلوب السابقين ﴿نَسْلُكُهُۥ﴾ أي: ندخله ﴿فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من قومك. حيث إنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ بالقرآن، وما فيه من إنذارهم بالعذاب ﴿وَقَدْ خَلَتْ﴾ أي: سبقت ﴿سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بتعذيبهم علىٰ كفرهم،وهؤلاء مثلهم سيعذبون إن ظلوا علىٰ عنادهم وكفرهم.

وعلىٰ هذا، فدعهم يا محمد، وسنتولىٰ نحن أمرهم.

ثم يقول المولىٰ في **السبب الرابع**:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾

يعني: هؤلاء ﴿لَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ آية ليؤمنوا ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ﴾ أي: في هذا الباب ﴿يَعْرُجُونَ﴾ يصعدون في السماء، ثُمَّ آية؛ ليؤمنوا أيضًا.. لمَا آمنوا، و﴿لَقَالُوٓاْ﴾ عنادًا وكفرًا وتكذيبًا: ﴿إِن﴾ الذي نراه، ويحدث لنا ﴿مَا﴾ هو إلَّا خيال، ونحن قد ﴿سُكِّرَتْ﴾ حبست ﴿أَبْصَـٰرُنَا﴾ عن الرؤية الحقيقية، لا بل ﴿نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ سحرنا محمد؛ لنؤمن به، ونتبع دعوته.

وعلىٰ هذا، فدعهم يا محمد، وسنتولىٰ نحن أمرهم.

وبعد أن استقر هذا الأمر الإلٰهي لمحمد ﷺ ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا﴾ [الحجر: ٣]، وبعد أن اتضحت علله وأسبابه، يحدثنا رب العزة عن بعض الظواهر الكونية الدالة علىٰ وجوده، بما لا يقبل إنكارًا، ولا يحتمل جدلًا.. فيقول سبحانه وتعالى:

أولاً: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ﴾ خلقنا ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ يعني: منازل للنجوم، والكواكب، ومسارات تنزل بها، وتسير فيها.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ أي: السماء بالكواكب والنجوم ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ إليها بأبصارهم، والمعتبرين بها ببصائرهم.

﴿وَحَفِظْنَـٰهَا﴾ بقدرتنا ﴿مِن﴾ دخول ﴿كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ إليها.

﴿إِلَّا﴾ أي: لكن ﴿مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ منهم، أي: حاول سرقة المسموع من أخبار الغيب ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ ولحقه، ودمره ﴿شِهَابٌ﴾ أي: شعلة نار، أو جزء من مادة النجوم ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر للناظرين.

ثانياً: ومن هذه الظواهر الكونية الدالة على وجود الله بما لا يقبل إنكارًا، ولا يحتمل جدالًا ما يذكره سبحانه في قوله:

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾

أي: ﴿و﴾ لقد خلقنا ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ لسكناكم، و ﴿مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطناها، وجعلناها صالحة لمعيشتكم عليها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا راسيات؛ لئلا تهتز بأهلها، في حركتها.

﴿و﴾ من إنعامنا عليكم؛ أننا ﴿أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ تحتاجونه بقدر ﴿مَّوْزُونٍ﴾ بميزان الحكمة.

﴿و﴾ كذلك ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ من المطاعم والمشارب التي يعيش بها وعليها الإنسان.

﴿و﴾ رزقنا ﴿مَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ أي: رزقنا ما تنتفعون به من الدواب والأنعام وغيرها، حيث إن الرازق لكم ولهم هو الله. وليكن معلومًا أنه ما ﴿مِّن شَىْءٍ﴾ في الكون ﴿إِلَّا عِندَنَا﴾ مفاتيح ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ التي هو محفوظ فيها. كما أننا ﴿مَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ من هذه الخزائن، لمن نرزقهم به ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ مقدر، على حسب المصالح.

وثالثًا: من هذه الظواهر الكونية، الدالة على وجود الله، بما لا يقبل إنكارًا، ولا يحتمل جدالًا ما يبينه سبحانه وتعالى في قوله:

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

يعني: ﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ لكم بقدرتنا ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾ في الجو ﴿لَوَٰقِحَ﴾ أي: تلقح السحاب؛ فيمتلئ ماءً.

﴿فَأَنزَلْنَـٰهُ﴾ لكم بقدرتنا ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السحاب هذا الماء، مطرًا.

﴿فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ﴾ يعني: جعلناه سقيًا لكم، ولأرضكم، ومواشيكم ﴿وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ﴾ أي: ليست مفاتيح خزائنه بأيديكم، بل بأيدينا نحن.

ورابعًا: يدل ربنا علىٰ وجوده وقدرته، بما لا يقبل إنكارًا، ولا يحتمل جدالًا بظاهرة الإحياء والإماتة، وموضوع البعث. فيقول تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

أي: ﴿وَإِنَّا﴾ فقط ﴿لَنَحْنُ﴾ الذين ﴿نُحْىِۦ﴾ بالخلق الخلائق كلها، ﴿وَنُمِيتُ﴾ بقدرتنا مَن جاء أجله منهم.

﴿وَنَحْنُ﴾ فقط الباقون ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ حيث يزول كل مالك، ويبقي ملك المالكين لنا.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ﴾ الوحيد، القادر، الذي يحيط بجميع الخلائق، ويعرف حصرهم ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ للحساب يوم القيامة.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿حَكِيمٌ﴾ في صنعه ﴿عَلِيمٌ﴾ بخلقه.

وخامسًا: يدل ربنا عز وجل علىٰ وجوده وقدرته بما لا يقبل إنكارًا، ولا يحتمل جدالًا بخلق الإنسان، وخلق الجان. فيقول ربنا عز سلطانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا﴾ بقدرتنا ﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أي: أصله، وهو آدم عليه السلام ﴿مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ﴾ أي: من طين أسود ﴿مَّسْنُونٍ﴾ أي: مصبوب مفرغ.

يقول الإمام النسفي رحمه الله: كان ترابًا، فعُجن بالماء فصار طينًا، فمكث وغاب هكذا، فصار حمًا، فخلص فصار سلالة، فصور ويبس فصار صلصالًا، ومنه خلق آدم.

﴿وَٱلْجَآنَّ﴾ كذلك ﴿خَلَقْنَـٰهُ﴾ بقدرتنا ﴿مِن قَبْلُ﴾ خلق آدم، لكن ليس من طين،

بل خلقناه ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: من النار الشديدة الحرارة، النافذ حرها إلىٰ المسام.

هذا ولمَّا ذكر ربنا عز وجل خلق الإنسان الأول، واستدل بذكره علىٰ وجود الإله وقدرته؛ ذكر بعد ذلك واقعة أمر الملائكة بالسجود له فأطاعوه إلّا إبليس، فإنه أبىٰ وتمرد. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: اذكر يا محمد لقومك وللدنيا كلها ﴿إِذْ﴾ وقت أن ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ أي: إنسانًا من جسم كثيف يباشر ويلاقي، بخلاف أجسامكم اللطيفة، التي لا تباشر، ولا تلمس.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ أي: صورته وسويت خلقه بالصورة الإنسانية، والخلقة البشرية ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ روحًا، هي بعض ﴿مِن رُّوحِي﴾ أي: الأرواح التي خلقتها ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ سجود تحية وانحناء.

ماذا فعلت الملائكة؟

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾

نعم، ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فورًا ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ لهذا الأمر الإلٰهي؛ لأنهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ وهو أبو الجن، والذي كان بين الملائكة ﴿أَبَىٰٓ﴾ وامتنع ﴿أَن يَكُونَ مَعَ﴾ الملائكة ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بأمر الله لآدم عليه السلام.

وماذا حدث بعد ذلك؟

﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ﴾ لم تسجد، ما الذي منعك ﴿أَلَّا تَكُونَ

مَعَ﴾ الملائكة ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ لآدم؟ ﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ﴾ أي: لا ينبغي لي، ولا يصح مني بحال من الأحوال، أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

ماذا قال ربنا لإبليس أمام تكبره وغطرسته وعناده؟

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾

﴿قَالَ﴾ رب العزة لإبليس عقابًا له: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، أو من السماء ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مطرود من رحمة الله، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ﴾ بسبب عصيانك ﴿ٱللَّعْنَةَ﴾ أي: الطرد من رحمة الله ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ أي: يوم القيامة، وبعدها يكون العذاب الذي ينسيك هذا اللعن تمامًا لشدته.

ماذا كان موقف إبليس اللعين؟

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ إبليس لربه: ﴿رَبِّ﴾ ما دمت طردتني من جنتك، وأبعدتني عن رحمتك ﴿فَأَنظِرْنِىٓ﴾ أي: أخرني، وأمهلني، ولا تهلكني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: إلىٰ وقت النفخة الثانية، التي لا موت بعدها، وذلك حتىٰ لا يموت أبدًا.

هل وافقه رب العزة علىٰ ما طلب؟ أبدًا بل:

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ ربنا لإبليس اللعين: قد أجبتك إلىٰ ما طلبت في الإمهال والتأخير ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾.

ولكن لا إلىٰ ﴿يَوْمِ﴾ البعث، بل إلىٰ ﴿ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ وهو النفخة الأولىٰ، التي يموت فيها الخلائق، ثم يبعثون، فتموت معهم، ثم تبعث مع الناس للحساب إذا بعثوا.

وهنا طلب إبليس طلبًا عجيبًا، حيث:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ أي: بسبب أمرك لي بالسجود لآدم، وعصياني وطردك لي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ المعاصي ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ أي: أحملهم على الغواية والضلال ﴿أَجْمَعِينَ﴾ حتى يستجيبوا لي، ويضلوا.

وهم سيستجيبون لي ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فهم لا يستجيبون؛ لأن كيدي وإغوائي لهم لا يؤثر فيهم.

ولمَّا أشهر إبليس سلاحه، وأعلن بدْء حربه مع خلق الله، وأنه لن ينجح في حربه مع عباد الله المخلصين، أعلن الله تعالى حمايته لهؤلاء المخلصين. حيث:

﴿قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿هَـٰذَا﴾ أي: تخليص المخلَصين من إغواء إبليس ﴿صِرَٰطٌ﴾ أي: طريق يؤدي إليَّ، وإلى مرضاتي، وهو حق ﴿عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أن أراعيه، وأراعيهم فيه.

حيث: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ المخلَصين يا إبليس ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ أي: قوة في الإغراء توقعهم بها في الكفر، أو المعاصي.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ في إغرائك ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ العاصين.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾ التي نعذب فيها الكفار والعصاة ﴿لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ معك للعذاب فيها. وجهنم هذه ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ أي: طبقات هي: جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية.

و ﴿لِّكُلِّ بَابٍ﴾ من أبوابها هذه ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من الكفار والعصاة ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ نصيب محدد معلوم.

وبعد أن تحدث المولى عن جهنم وأهلها، بشر بالجنة وأهلها، فقال عز من قائل:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ ربهم يدخلون ويقيمون ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾.

ويقال لهم: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ أي: آمنين فيها من الخوف، أو الآفات، أو الفزع، أو الخروج منها. وإن كان لأحدهم غل على آخر في الدنيا، نزعه الله من قلبه وطهر روحه قبل الدخول. يقول تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ فلا يتحاسدون فيها، بل يتوادون، ويتحابون، ويكونون ﴿إِخْوَانًا﴾ مترابطين، يجلسون في الجنة ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ لا ينظر بعضهم إلىٰ قفا بعض، بل يكون النظر الدائم إلىٰ الوجوه لدوران هذه السرر، أو بكيفية لا يعلمها إلَّا الله.

وكذلك: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿نَصَبٌ﴾ أي: تعب ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أبدًا.، وهذا من تمام إنعام الله عليهم. جعلنا الله وإياكم منهم، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

وبعد أن ذكر الله تعالىٰ ـ فيما قرأناه ـ بعضًا من دلائل التوحيد والقدرة الإلٰهية، وبعد أن أوعد العصاة، ووعد الطائعين، في نهاية قصة آدم عليه السلام. أتبع ذلك بقوله:

﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾

أي: أخبر يا محمد ﴿عِبَادِي﴾ المعترفين بعبوديتي، الطائعين منهم، والعصاة ﴿أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ﴾ لذنوبهم إذا رجعوا إليَّ تائبين ﴿الرَّحِيمُ﴾ بهم، في الدنيا والآخرة.

وأخبرهم كذلك ﴿أَنَّ عَذَابِي﴾ للكافرين والعصاة ﴿هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ المؤلم، الشديد الإيلام. وكان ذلك الوعد والوعيد؛ ليختار كل إنسان طريقه، وليبدأ كل إنسان من الآن.

يا محمد، هذه سنتنا في الأولياء، وفي الأعداء. وقد بيّنا لك تطبيق ذلك في الآخرة عند ذكر قصة آدم عليه السلام، ونبين لك وللدنيا كلها، تطبيق هذه السنة في الدنيا، في هذا القصص التالي. . فابدأ..

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

المعنى: أخبر الدنيا كلها يا محمد ﴿عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿إِذْ﴾ وقت أن ﴿دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ منزله ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: عليك. فرد عليهم ـ كما في سورة هود [٦٩، ٧٠] ـ ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي: عليكم ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ لهم ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ مشوي، من باب الضيافة؛ ليأكلوا، ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الأكل، أي: لا يأكلون ﴿نَكِرَهُمْ﴾ يعني: استنكر ذلك منهم ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لعدم قبولهم تحيته و﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، فردوا عليه، و﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ﴾ لا تخف منا ﴿إِنَّا﴾ رسل ربك جئناك ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ بأمر الله ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ ذو علم كثير.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ بالولد ﴿عَلَىٰٓ﴾ أي: بعد ﴿أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾ وهذا مستبعد ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ وهذا من العجائب؟ ﴿قَالُوا۟﴾ له: نحن ﴿بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ أي: من الآيسين من ذلك، فإن الله قادر على أن يخلق بشرًا من غير أبوين، فكيف من شيخ كبير، وامرأة عجوز عاقر؟

﴿قَالَ﴾ أنا لا أقنط من قدرة الله، كيف ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ الكافرون، ولكني أتعجب من ذلك، وأستغربه بحكم العادة.

ثم سألهم صراحة عما جاءوا له أصلًا، حيث ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: أمركم الذي جئتم أساسًا من أجله ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؟

﴿قَالُوٓا۟﴾ يجيبونه: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾ من ربنا ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ وهم قوم

لوط الكافرون، لإهلاكهم بأمر الله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ فقط وهم أتباعه والمؤمنون به ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ أي: أهله هؤلاء ﴿أَجْمَعِينَ﴾.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أي: لكن امرأته لا ننجيها، بل نهلكها مع الهالكين، حيث ﴿قَدَّرْنَآ﴾ أي: قدَّر الله، وأخبر ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: المهلكين.

وذهبت الملائكة إلىٰ لوط عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾

أي: لمَّا وصلت الملائكة إلىٰ لوط عليه السلام، ودخلوا عليه ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ لا أعرفكم، ولا أعرف من أين جئتم، ولماذا جئتم، وأخاف أن تمسوني بسوء مثل باقي القوم هنا.

﴿قَالُوا۟﴾ له: لا تخف، ولسنا من هؤلاء القوم ﴿بَلْ﴾ نحن رسل ربك ﴿جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟﴾ أي: قومك ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: بعذابهم الذي خوفتهم منه، وأنذرتهم به، وكانوا في مجيئه يشكون.

﴿وَ﴾ قد ﴿أَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي تبصره بعيونك من عذابهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ في كلامنا هذا، وسوف ترىٰ.

ولهذا نقول لك: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ أي: اخرج من هذا البلد ومعك أهلك المؤمنون بك، وسر بهم ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: في آخر الليل، بعد أن ينام قومك، فلا يشعرون بخروجك، يروىٰ: أنه لم يخرج معه إلَّا بنتاه، حيث كانتا هما المؤمنتان فقط ﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: سر خلفهم، لتطمئن عليهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ إذا سمعتم صيحة تعذيبهم؛ لئلا تروا ما ينزل بهم، صيانة لعيونكم وأعصابكم ﴿وَٱمْضُوا۟﴾ أي: وسيروا إلىٰ ﴿حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: إلىٰ المكان الذي يأمركم الله تعالىٰ بالتوجه إليه.

وسمع لوط عليه السلام من الملائكة هذا الكلام، وعرف منهم قرب نزول العذاب بالكافرين من أهل بلده، وكأنه رق لحالهم، ورغب في إيمانهم، ونجاتهم. لذلك يقول الله تعالىٰ:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾

يعني: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾ أي: وأوحينا ﴿إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ وأعلمناه به، وهو ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ﴾ أي: هالكون عن آخرهم، ولا يبقىٰ منهم أحد، حال كونهم ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ يعني: في الصباح. وفهم لوط الأمر، ورضي لوط بالوحي، فهل انتهت القصة؟ لا، لم تنته بعد. يقول رب العزة:

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

أي: بعد وصول الملائكة إلىٰ بيت لوط عليه السلام، ودخولهم فيه ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ﴾ إلىٰ لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضاً بضيوف لوط، الذين سيفعلون معهم الفاحشة. ووصلوا إلىٰ لوط، ودخلوا بيته، وقد فهم بدوره ماذا يريدون؟

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لوط لقومه المتجمهرين عنده: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى﴾ وواجب الضيف إكرامه ﴿فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ بالإساءة إلىٰ ضيوفي. قال ذلك مجاراة لهم، وهو يعلم أنهم لن يصلوا إليهم، وذلك لحثهم علىٰ ترك الفاحشة، وتعليم واجب إكرام الضيف واحترامه، لعل وعسىٰ.

ثم قال لهم: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بالبعد عن الفاحشة ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ أي: ولا تذلوني بإذلال ضيفي.

وهنا أغلظوا له القول، حيث:

﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿قَالُوٓا۟﴾ له ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ﴾ قبل ذلك أن تستضيف أحدًا ﴿عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أبدًا؟

فرد عليهم لتعليمهم حكم الإسلام، وسنة الله في خلقه.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾ فأسلموا وتزوجوهن أو: فتزوجوهن، وكان في شريعته جواز أن يتزوج الكافر بالمسلمة. ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ ما تريدون من قضاء الشهوة.

وهنا يقول الله تعالىٰ لمحمد ﷺ قبل أن يخبره بنهاية القصة؛ ليعتبر أمثالهم:

﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ٧٢﴾

﴿لَعَمۡرُكَ﴾ يعني: بحياتك يا محمد ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ غوايتهم وضلالهم الذي أذهب عقولهم ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ يترددون، ولا يعرفون ما فيه صالحهم.

ثم يخبره سبحانه عن نهاية القصة، ونزول العذاب بهم قائلًا:

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣ فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾

يعني: وخرج لوط من هذه القرية ومعه ابنتاه، وطوىٰ الله له الأرض، حتىٰ نجا ومن معه.

وهنا يقول المولىٰ: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ أي: أهلكت قوم لوط صيحة جبريل عليه السلام ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ ساعة طلوع الشمس من مشرقها.

﴿فَجَعَلۡنَا﴾ بهذه الصيحة ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ حيث رفعها جبريل إلىٰ السماء وأسقطها مقلوبة إلىٰ الأرض.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ أي: علىٰ مَن كان منهم خارج قراهم، في سفر أو غيره ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين قوي متحجر مطبوخ بالنار.

ثم يعلق ربنا علىٰ هاتين القصتين، قصة إبراهيم عليه السلام وقصة لوط عليه السلام، بما يلفت النظر إلىٰ ما فيهما من عبر ودروس قائلًا:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ القصص ﴿لَآيَاتٍ﴾ وعبر ودروس كثيرة ﴿لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ المفكرين، الناظرين بعين البصر والبصيرة، فهل من معتبر؟ ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: قرىٰ قوم لوط ﴿لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: بطريق ثابت باق، يراه المسافر، والدارس، وكل مَن أراد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ القصص ﴿لَآيَةً﴾ كافية ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعتبرون بها، ويفيدون منها.

وعن القصة الثالثة، يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾

يعني: وإنه ﴿كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ أي: أصحاب بقعة الأشجار الكثيفة، وهم قوم شعيب عليه السلام ﴿لَظَالِمِينَ﴾ بتكذيبهم شعيبًا وعدم إيمانهم. ماذا حدث لهم بسبب ظلمهم وعنادهم؟ يقول تعالىٰ: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالصيحة، والرجفة، وعذاب يوم الظلة. ثم يقول ربنا عز وجل عن قرىٰ قوم لوط، وأيكة قوم شعيب: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾ أي: هذه وتلك ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بطريق واضح، ثابت، باق، يراه المسافر، والدارس، وكل أحد.

يعني: فهل من معتبر؟

وعن القصة الرابعة ـ والتي سميت بها السورة ـ يقول سبحانه:

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ﴾ كذلك ﴿أَصْحَابُ الْحِجْرِ﴾ وهم ثمود، وبلادهم بين الشام والمدينة المنورة، وآثارهم لا زالت موجودة إلىٰ اليوم. لقد كذّب هؤلاء ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ إليهم، وهو صالح عليه السلام.

﴿وَآتَيْنَاهُمْ﴾ ما طلبوا من ﴿آيَاتِنَا﴾ وهي الناقة التي أخرجها الله لهم من الصخرة ﴿فَكَانُوا عَنْهَا﴾ لاهين، وعن الإيمان بالله ﴿مُعْرِضِينَ﴾.

﴿و﴾ هؤلاء ﴿كَانُوا﴾ لقوتهم التي أعطيناها لهم ﴿يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ لهم، يقيمون فيها ﴿ءَامِنِينَ﴾ حيث يحسبون أنها تقيهم من عذاب الله، الذي خوفهم منه صالح عليه السلام، لعدم إيمانهم.

أتدرون ماذا حدث لهؤلاء الأقوياء؟ يقول ربنا عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ بالعذاب ﴿مُصْبِحِينَ﴾ في اليوم الرابع من قول صالح لهم:

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

وهكذا عذبوا، وسقطوا، وضاعوا .﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُم﴾ وما أفادهم، وما منع عنهم العذاب ﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من أموال، وبيوت، وزروع.. إلخ ما داموا لم يؤمنوا، ولم يطيعوا الله سبحانه وتعالىٰ.

وهكذا، انتهىٰ القصص الذي أراد المولىٰ أن يلفت به أنظار الظالمين، المعاندين، الذين يستبعدون عذاب الله في الدنيا؛ لعلهم يعتبرون فيتعظون، فيستقيمون علىٰ دين الله، ويعملون بشريعته سبحانه؛ فينجون من غضبه وعذابه.

وفي ختام السورة يكون الحديث الناصح الموجه من رب العزة للنبي ﷺ، حيث يقول تعالى مثبتاً له، ومقرراً ليوم البعث الذي ينكرونه:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾﴾

يعني: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ولغاية، وليس عبثاً ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ أي: القيامة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ لا محالة، وفيها الجزاء العادل للعاصي والمطيع ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أي: ما دام الأمر إلىٰ الله، وسيجازيهم هو، فعاملهم بالخلق الحسن، والعفو عنهم، والصفح.

حيث: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ الذي خلقك وخلقهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالك وحالهم، لا يخفىٰ عليه شيء من ذلك. ثم يقول له سبحانه:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾﴾

وفي هذه الآيات الكريمة: يمتن الله على محمد ﷺ، ويذكره بنعمة القرآن العظيم ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾ من لدنا ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ وهي سورة الفاتحة، وآتيناك ﴿ٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ كله، تشريفًا لك، ومنهاجًا لأمتك، وفيه الغنى كل الغنى.

ثم ينهاه عن شيئين؛ ويأمره بشيئين:

النهي الأول: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ أي: أصنافًا من الكفار بمتاع الحياة الدنيا، فقد آتيناك ما هو أفضل، وأفضل، وأفضل.. وهو القرآن العظيم.

النهي الثاني: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إن لم يؤمنوا، أي: من أجل إيمانهم؛ رغبة فيه.

والأمر الأول: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لِن لهم، وتواضع معهم، وأحسن إليهم، فقراء منهم وأغنياء.

والأمر الثاني: ﴿وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المكذبين لك: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ لكم من عذاب الله؛ لتؤمنوا، حتى لا ينزل بكم ﴿كَمَآ أَنزَلْنَا﴾ ـه ﴿عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟﴾ كتبهم عضين، أي: أقساماً فآمنوا ببعضها، وكفروا بالبعض الآخر منها، كما جعل قومك مثلهم ﴿ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾.

ثم يطمئنه قائلًا:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾

أي: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ لنحاسبهم أجمعين ﴿عَمَّا كَانُوا۟﴾ يعملونه، وسنجازيهم عليه.

ثم يحدد له مهمته، ويطمئنه قائلًا:

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يعني: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ أي: أظهر الدعوة، وبلغ الرسالة ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ فلا تهتم بهم، ولا تتعرض لهم. وكان هذا قبل الأمر بجهاد هؤلاء الكفار.

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ﴾ شر هؤلاء ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ بك وبالدعوة، وهم هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يكفرون، و﴿يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ من خيالهم، أو تقليداً لآبائهم.

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ غضبي عليهم، وشدة عذابي لهم.

ثم يوضح ربنا للنبي ﷺ ما يساعده على النجاح في أداء مهمته، وتبليغ رسالته حيث يقول له:

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾

أي: نحن ﴿نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ فيك، أو في القرآن، أو في الله، مما يؤذيك ويؤلمك، فلا يهمنك ذلك.

واستعن على تحمل ذلك بتسبيح ﴿رَبِّكَ﴾، والسجود له، وعبادته المستمرة، في كل حال، حتى آخر لحظة من حياتك ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ وهو الموت. حيث إن مقابلة الإيذاء بالتسبيح، والسجود، والعبادة زاد الدعاة، ومَن لا يستطيع ذلك، لا يقدر على الاستمرار.

هذا وبالله التوفيق.

* * *

obeikandl.com